

الهامش الحضري فضاء لإنتاج المعنى الاجتماعي - الثقافي

قراءة سوسيو-أنثروبولوجية في المعيش اليومي لحي أولاد سمائل.

Urban Margin as a Space for Producing Socio-Cultural Meaning -A Socio-Anthropological Reading of the Daily Life in Ouled Smail Neighborhood.

نوال بلغليفي*،  مركز البحث في الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية - CRASC - وهران
n.belloghlifi@crasc.dz

تاريخ النشر: 2025/12/31

تاريخ القبول: 2025/11/20

تاريخ الإرسال: 2025/07/24

ملخص:

يهدف هذا المقال الذي يركز على معطيات ميدانية تم جمعها حول حي أولاد سمائل، الذي يقع على هامش مدينة التلاغمة التابعة لولاية ميله - شرق الجزائر، إلى دراسة واقع المعيش اليومي لسكان هذا الحي، حيث تم الاعتماد على تقنيات البحث الاجتماعي كالملاحظة، المقابلة والتصوير الفوتوغرافي. لفهم وتفسير كيف يتحول الهامش الحضري من مجال للإقصاء الجغرافي والاجتماعي؛ نتيجة تهميشه وعدم استفادته من المشاريع التنموية، انتشار البطالة، التلوث وما يصاحبه من مشكلات إيكولوجية... إلى فضاء لإنتاج المعنى الاجتماعي - الثقافي؛ يعيد فيه موقعه ضمن المدينة ويؤسس لتمثلات جديدة للهوية والانتماء.

وقد توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى أنه بالرغم من مظاهر التهميش والتخلف التي عرفها حي أولاد سمائل، إلى أن سكانه استطاعوا إعادة تنظيم حياتهم وفق إمكانياتهم المحدودة وتطوير شبكات تضامن وتكافل للحد من التفاوتات الطبقية والمجالية، حيث أعادوا إنتاج معاني جديدة من العلاقات، الهويات، وأشكال من التعبير الثقافي ترتبط بالانتماء والمقاومة والتأقلم مع واقع يسعى إلى تهميشهم واقصائهم.

الكلمات المفتاحية: الهامش الحضري، المعيش، الهوية، المركز، التنمية.

* المؤلف المرسل  <https://orcid.org/0009-0005-7104-3555>

Abstract:

This article, based on field data collected around the Ouled Smail neighborhood, located on the outskirts of the city of Teleghma in the Mila province eastern Algeria, aims to study the reality of the daily life of the inhabitants of this neighborhood. Social research techniques such as observation, interviews, and photographic documentation were used. To understand and interpret how the urban margin transforms from a sphere of geographical and social exclusion due to its marginalization, lack of benefit from development projects, unemployment, pollution, and accompanying ecological problems into a space for producing socio-cultural meaning. Inhabitants reposition themselves within the city and establish new representations of identity and belonging.

Through this study, we found that despite the manifestations of marginalization and underdevelopment that Ouled Smail neighborhood experienced, its inhabitants were able to reorganize their lives according to their limited means and develop solidarity and mutual aid networks to reduce class and spatial disparities. They reproduced new meanings of relationships, identities, and forms of cultural expression linked to belonging, resistance, and adaptation to a reality that seeks to marginalize and exclude them.

Keywords: Urban margin, lived experience, identity, center, development.

مقدمة:

في سياق التحولات العمرانية والاجتماعية المتسارعة التي تشهدها المدن الجزائرية، برزت الهوامش الحضرية كمجالات إيكولوجية واجتماعية متوترة تتموضع على تخوم المدينة، لكنها في الوقت ذاته تنبض بديناميكيات ثقافية ومعيشية معقدة تستحق الوقوف عندها بوصفها فضاءات موازية لإنتاج المعنى والهوية. فالتحضر كما يمارس في هذه المناطق، لا ينسجم بالضرورة مع أنماط التنظيم الرسمي، بل يتجلى في أشكال عيش بديلة، وفي استراتيجيات مقاومة صامتة أو رمزية، تعكس، من جهة واقع الإقصاء والتهميش وتفصح من جهة ثانية عن إمكانات التأقلم والابتكار الاجتماعي. ومن هذا المنظور يغدو الهامش الحضري، لا مجرد فضاء جغرافي مهمش، بل حقلا سوسيولوجيا تتقاطع فيه أنماط الاستقرار القسري مع شبكات المعنى المحلية، وتعاد فيه صياغة العلاقة بين الذات والمدينة، ضمن شروط غير متكافئة. ذلك أن ساكن الهامش، وإن كان مستبعدا من منطق التنمية الحضرية،

إلا أنه يخلق من خلال تفاعلاته اليومية وعبر أنماط التعبير الثقافي الهجين – كالراب والغرافيتي والنكتة الساخرة – عالماً رمزياً، يعيد فيه تأويل موقعه ضمن المدينة، ويؤسس لتمثلات جديدة للهوية والانتماء. وفي ظل هذا التوتر القائم بين التهميش والتعبير، تطرح هذه الدراسة سؤالاً محورياً مفاده: كيف يتحول الهامش الحضري من فضاء للإقصاء المجالي والاجتماعي، إلى مجال منتج للمعنى الثقافي ورأس مال رمزي بديل؟ وما هي الآليات الاجتماعية والتفاعلية التي يعتمد عليها الفاعلون في حي أولاد سمائل لصياغة وجودهم ومقاومة خطاب التهميش؟ كما نسائل في هذا السياق البنية التحتية للخطاب الهامشي ذاته: هل هو مجرد ردة فعل ظرفية على انسداد الأفق الحضري، أم أنه تعبير استراتيجي عن شكل مغاير من أشكال المواطنة والتموضع المدني؟

بهذه الإشكاليات، تسعى الدراسة إلى تفكيك البنية الرمزية للهامش بوصفه خطاباً وسلوكاً وتمثلاً وذلك من خلال الغوص في تفاصيل المعيش اليومي لسكان حي أولاد سمائل، باعتباره مرآة تعكس التوتر القائم بين التخطيط الرسمي والحياة الموازية التي تفرض شروطها من الأسفل، في صمت لكنه مشحون بالدلالات.

تدخل هذه الدراسة في إطار البحوث الاستطلاعية الاستكشافية حيث انطلقنا من تساؤلات بحثية؛ فهي غالباً ما تقوم بالوظائف المنهجية نفسها التي تقوم بها الفرضيات (زرزواتي، 2002، صفحة 99).

وللإجابة على هذه التساؤلات ارتأينا تحديد جملة من الأهداف التي يسعى هذا المقال للبحث فيها بناء على ضوء الدراسة الميدانية؛ كمحاولتنا لفهم كيف يعيد الهامش الحضري إنتاج ذاته في ظل التهميش التنموي والمؤسسي من خلال دراسة العلاقة بين المركز والهامش من منظور سوسيولوجي-أنثروبولوجي، إضافة إلى الكشف عن آليات التكيف والمقاومة التي يطورها سكان الحي في مواجهة الإقصاء الاجتماعي والجغرافي التي تظهر في أشكال عيشهم وتفاعلاتهم اليومية.

وللوصول إلى تحقيق نتائج الدراسة استخدمنا منهج دراسة حالة "حي أولاد سمائل" التابع لمدينة التلازمة، لتمييزه بخصائص عمرانية واجتماعية وثقافية تجسد مظاهر الهامشية الحضرية وغياب التنمية به، لكن هذا لم يمنع من تحوله إلى فضاء لإنتاج المعنى الاجتماعي والثقافي من خلال محاولة تكيف سكانه مع واقعهم المعيش، مما دفعنا للاستعانة بالمنهج الوصفي، لوصف المعيش اليومي لسكانه وأهم المشكلات التي تعاني منها مناطق الهامش الحضري والأحياء الفوضوية التي نشأت نتيجة التوسع العمراني للمدينة، والظروف الاقتصادية لسكاني هذه المناطق وكيفية اندماجهم اجتماعياً في الحياة الحضرية، والآثار الناجمة عن ممارستهم لنشاطات غير رسمية كإعادة تدوير البلاستيك، مما أدى إلى التلوث وما صاحبه من مشكلات بيئية أثرت على صحة ساكني المنطقة.

بالنسبة للأدوات المستعملة في جمع المعطيات اعتمدنا على أداتي الملاحظة والمقابلة، من خلال الخرجات الميدانية المتكررة إلى مجال البحث. وذلك بالانتباه لبعض النشاطات غير الرسمية التي يمارسها سكان المنطقة كتجميع الخردوات أمام مساكنهم وبيعها لأصحاب مصانع إعادة تدوير البلاستيك، هذه الأخيرة التي تصدر غازات سامة وروائح كريهة خاصة في فصل الصيف (حسب تصريح المبحوثين) أدت إلى تدهور حالتهم الصحية، إضافة إلى غياب التهوية وتعبيد طرقات الشوارع الثانوية (انظر إلى الصورة رقم 01 في الملاحق) دون أن ننسى نقص المرافق الضرورية التي لا تستوعب حاجات السكان مما يعكس نوع الاطار المعيشي والخدمي بالمنطقة والذي يجسد مظاهر المعاناة والاقصاء الذي يعيشه سكان المناطق الهامشية المتواجدة على حواف المدن.

1. حي أولاد سمائل: حدود المكان وامتدادات الهوية:

من الناحية الجغرافية يقع التجمع الثانوي أولاد سمائل أو مشتة مخالفة شمال شرق بلدية التلاغمة، يفصل بينهما خط السكة الحديدية، المنطقة العسكرية وبعض الأراضي الفلاحية، يترع على مساحة 172.50 هكتار. يحده من الجهة الشرقية الحدود البلدية. ومن الشمال الطريق الوطني رقم 100. أما من الغرب تحده المنطقة العسكرية. (Urbaco، 2014، صفحة 06)

يتموضع حي أولاد سمائل ضمن منطقة سهلية وله أهمية خاصة بفعل قربها من مركز مدينة التلاغمة والمنطقة العسكرية. ومرور الطريق الوطني رقم 100 الذي يربط مدينة عين مليلة ببلدية المشيرة مروراً بالتجمع الرئيسي – التلاغمة-، كما يعتبر بمثابة تجمع مستقبل للسكان وهذا ما شجع على زيادة وتيرة التوسع العشوائي به.

بلغ عدد سكان حي " أولاد سمائل " مجال البحث، حوالي: 10654 نسمة سنة 2008، (نتائج الإحصاء العام للسكان والسكن، 2008) في حين قدر حسب الحصيلة الأولية للإحصاء الأخير الذي أجري سنة 2023 م، حوالي : 15567 نسمة (الحصيلة الأولية لإحصاء سنة 2023)

في بداية الخمسينيات نشأت قرية صغيرة بالقرب من التجمع الرئيسي التلاغمة تسمى مشتة مخالفة، التي سكنها المعمرون الفرنسيون آنذاك وبعد رحيلهم عام 1962م تم استعادت أراضيها من طرف ثلاث عائلات جزائرية بما فيهم عائلة الشهيد " مولود اسماعيل " ومن هنا نسبت المنطقة إليه وأصبح يطلق عليها " أولاد سمائل ".

وخلال الفترة الممتدة من 1962- 1980م عرفت المنطقة نزوحاً ريفياً سواء من البلدية أو خارجها تبعه توسع غير مخطط وبنابات عشوائية على أراضي مشتة مخالفة التي تحولت سنة 2013م إلى تجمع ثانوي تابع للتجمع الرئيسي – التلاغمة – ففي العشرة السوداء جاءت عائلات من مناطق تابعة لولاية ميلة " القرارم، زارزة، فرجيوة" وأغلب العائلات كانت من منطقة فرجيوة فمنهم من استلوا

على أراضي الدولة وآخرين اشتروا على الخواص حيث كانوا يمارسون مهنة بسيطة أثناء مجيئهم، كالتجارة وبيع الملابس بالعربات، وبعد فترة من استقرارهم قاموا بتوسيع وتطوير نشاطهم من خلال شراء محلات كبيرة لبيع المفروشات وفتح ورشات وتوظيف عمال من سوريا حسب تصريح بعض المبحوثين.

وهذا ما عبر عنه **بيرجس** في نظريته "الدوائر المترازمة" (ناصر، 2006، صفحة 77) بأن الهامشيات الحضرية تشكل بفعل النازحين وتصبح إما أحياء مؤقتة للانتقال إلى أحياء أخرى، إثر تحسن ظروفهم المادية بعدما يتحصلون على عمل أو القيام بتجارة مما يساعدهم على الاندماج في الحياة الحضرية.

وإذا كانت المناطق المهمشة التي تقع غالبًا على أطراف المراكز الحضرية، تحتضن فئات اجتماعية تعيش تحديات متعددة، فإن هذه الأخيرة تطوّر أيضًا من قدرتها على الصمود. فعلى الرغم من أن هذه الساكنة تعيش في ظروف اجتماعية واقتصادية صعبة، إلا أن ذلك له تأثير على تفاعلاتهم اليومية وديناميكياتهم الاجتماعية، كما قد يعانون من ضغوط اجتماعية واقتصادية وثقافية وتعليمية نتيجة استبعادهم بشكل منهجي من برامج وخطط التنمية، إضافة إلى استهداف هويتهم وتراثهم الثقافي وأعرافهم الاجتماعية، فرغم هذه الصعوبات، يطوّر سكان الهامش الحضري شبكات تضامن قوية. فالعلاقات المجتمعية وروح التعاون والمساعدة المتبادلة تُعد ضرورية لمواجهة الصعوبات، سواء تعلّق الأمر بالولوج إلى التعليم أو الخدمات الصحية أو إلى سوق العمل. كما تلعب الجمعيات المحلية ومبادرات المواطنين والأنشطة المجتمعية (مثل الاحتفالات الشعبية والدينية) دورًا محوريًا في خلق شعور بالانتماء والدعم المتبادل. في حين يتم استغلال هذه الجمعيات خاصة الرياضية منها لغرس بعض القيم الإنسانية لدى الشباب، مثل روح الأخوة والثقافة القائمة على الاستحقاق، كاستجابة للتحديات السياسية والمالية التي أصبحت اليوم تهيم على تصورات وممارسات مختلف الفاعلين.

2. المعيش اليومي لحي أولاد سمائل ومسألة الهامشية الحضرية:

تستعمل عبارة الهامش عادة لتحديد مجال موجود على أطراف المدينة مقارنة بالمركز. وعادة ما يتعدى البعد المجالي ليشمل أيضا البعد الاجتماعي، كانهدام الأمن، الفقر، العنف، البطالة، الاقصاء والتهيمش، أما عن الهامش الحضري فهو المنطقة التي تقع على أطراف المدينة، وتشهد تغيرات مستمرة في استخدام الأراضي والبنية التحتية مع امتداد المدينة وتوسعها.

هذه المناطق غالبًا ما تكون مواقع للنمو السكاني وقد تشهد أيضًا تطورًا لعشوائيات ومستوطنات غير رسمية فمن بين الدوافع الرئيسية التي شجّعت على استقرار الفاعلين هي حركة النزوح الريفي على هوامش مدينة التلاغمة، حيث نجد الأسعار الرخيصة للأراضي، بل وحتى مجانياتها

بالنسبة لأولئك الذين اختاروا الاستحواذ على قطع من أراضي البلدية. هؤلاء، الذين استقروا في سياق حالة الطوارئ أتاحت لهم الفرصة للاستيلاء على المساحات التي يرغبون بها بالحي مجال البحث من حيث المساحة وكان بإمكانهم لاحقاً توسيعها أيضاً، دون التفكير في ترك مساحات مخصصة لإنشاء بنى تحتية ذات منفعة عامة. حيث أن هؤلاء الوافدين الجدد الذين استقروا دون أي تخطيط مسبق، خلقوا ضغطاً على البنى التحتية الموجودة وزادوا من اتساع الفجوة بين هذه البنى التحتية واحتياجات المنطقة.

فمن خلال بعض الملاحظات الميدانية تبين لنا أن المسافات التي تُركت بين المساكن في بعض الشوارع لا تحترم معايير التعمير الحديثة، ولا تسمح بمرور شاحنات جمع النفايات أو شاحنات تعبئة الطرقات. وقد تمكنا من ملاحظة بعض هذه التجاوزات خلال خرجة ميدانية قمنا بها مع ممثل عن السلطات المحلية الذي أرانا بناية مشيّدة على أرض تابعة للبلدية، كانت هذه الأخيرة قد خصصت سابقاً لإقامة منشآت موجهة لخدمة السكان المحليين.

صرّحت لنا موظفة من المصلحة التقنية لبلدية التلاغمة، في إجابة لها على سؤال طرحناه حول أسباب التأخر في بناء ثانوية على مستوى أولاد سمائل، قائلة: «الأرض التي تم اختيارها في مخطط شغل الأراضي (POS) لبناء الثانوية تم الاستيلاء عليها من طرف أحد الخواص لبناء مسكنه، ولم يكن بإمكان مصالح البلدية فعل أي شيء. (مقتطف من مقابلة مع موظفة بمصلحة التقنية لبلدية التلاغمة).

نلاحظ أن درجة التساهل الشديد التي سمحت ببناء مساكن على الأراضي الزراعية في أولاد سمائل جعلت المنطقة تخسر فرصاً هامة لخلق مناصب شغل في القطاع الزراعي. ومع ذلك، فإن هؤلاء السكان الجدد استطاعوا الاندماج في سوق العمل من خلال استغلالهم لمختلف الفرص المتاحة لهم، مثل العمل في مجال البناء أو التجارة. أما بالنسبة للوافدين من مناطق فرجية، المعروفة بتخصصها في تجارة النسيج والمفروشات المنزلية كما ذكرنا سابقاً، فإن الكثير منهم ينشطون في هذا القطاع سواء كبائعين أو حتى كمنتجين مساهمين بذلك في خلق مناصب شغل جديدة على مستوى المنطقة. من خلال فتح ورشات لصناعة المفروشات والزراي وغيرها. في حين يقوم بعض السكان بتجميع الخردوات وقارورات البلاستيك أمام منازلهم (أنظر إلى الصورة رقم 03 في الملاحق) وبيعها لأصحاب مصانع إعادة الرسكلة المتواجدة على مستوى المنطقة، هذا ما يشكل خطورة على صحتهم نتيجة المواد السامة التي تفرزها هذه الأخيرة - الخردوات - خاصة أثناء تعرضها لأشعة الشمس.

في حين تعاني فئة كبيرة من شبح البطالة والفراغ، وهذا ما أشار إليه اسماعيل قيرة في دراسة اجتماعية قام بها حملت عنوان «مجتمع التهميش .. الى أين . مهمشو المدينة العربية نموذجاً» (قيرة،

2003، صفحة 65) إلى ظهور بعض المصطلحات والتي منها «الحيطيست» أي «الحيطيون» التي قال أنها تعني الفراغ واليأس والبطالة وتأتي من كلمة الحائط والشخص الذي يتكئ عليه أو يقف بجانبه دون عمل، وهذا ما عبر عنه بعض الشباب البطال بحي أولاد سمائل "رانا حيطيست مناه ما كانش الخدمة في لبلاصة هذي" وهو تصريح واضح على شعورهم بالتهميش.

وهذا ما دفعنا للقول أن حي أولاد سمائل يواجه عدة مشاكل قد تؤدي بالسكان المحليين إلى التعرض للتهميش والوصم الاجتماعي. كما أن محدودية الوصول إلى بعض الفرص يمكن أن تعزز لديهم مشاعر العزلة والإقصاء. حيث يشكّي السكان من نقص استفادتهم من المشاريع التنموية في ظل نقص الهياكل والمرافق العمومية الضرورية التي من شأنها تخفيف وطأة المعاناة التي أضحت ملمحا يطبع يومياتهم البائسة، من جهة أخرى يعتبر نقص وحدات العلاج الصحية بالحي مجال البحث مشكلا مطروحا، حيث يضطرون للتنقل إلى مركز مدينة التلاغمة لتلقي العلاج لأن العيادة المتعددة الخدمات الموجودة بالحي ذات الحجم الصغير (أنظر إلى الصورة رقم 02 في الملاحق) تفتقر لفريق طبي يسهر على خدمة هؤلاء السكان سيما الأطباء المختصين على مستوى العيادة كطب النساء والتوليد وغيرها، هذه الوضعية الصعبة التي يعاني منها السكان دفعت بهم في بعض الأحيان إلى الاستغناء عن متابعة العلاج أو حتى زيارة الطبيب.

3. الخطاب الهامشي بوصفه تعبيراً عن الهوية:

الهامش، حيث تنكمش السلطة المركزية وتمتص صور الخطابات الرسمية، ينبثق خطاب مغاير، لا على هامش اللغة فقط، بل على هامش المعنى، ومساءلة الحقيقة المهيمنة ذاتها. إنه خطاب ينبع من الأصوات المنخفضة بتعبير مسكوت، ويتخذ شكل التعبير الرمزي المضمحل الذي لا يعلن نفسه مباشرة بل يمارس المراوغة والاختباء ليبيّن عبر تلك الاستراتيجيات ما نطلق عليه في دراستنا هذه الوعي من الأسفل. هذا الخطاب الذي غالبا ما يهتم بالعشوائية أو الابتذال، هو في الواقع نظام رمزي مواز، تتكشف فيه مفردات التجربة اليومية المقموعة والمبعدة، لتنتج سردية ثقافية نقبضة تعبر عن رفض مكبوت، وهوية قيد التشكل.

وحين نقراً الغرافيتي على جدران الأحياء الشعبية، أو نصغي إلى إيقاعات الراب المنبعثة من الأتربة أو خطاباتهم اليومية، فإننا لا نواجه مجرد تفرغ نفسي، بل نصوصا ثقافية حية تنبني في تضاد مع النسق الرسمي، وتعمل على خلخلة مركزية المعنى. ففي عبارة مثل "مانيش سامط" أو "الدنيا راكبة فوق ظهري وأنا نضحك"، تختصر تجربة الانكسار والتمرد، وتعد صياغة علاقة الذات بالسلطة ضمن بنية سيميائية مقلوبة، تعيد فيها اللغة إنتاج المفارقة بوصفها شكلا من أشكال المقاومة، تماما كما تحدث ميخائيل باختين عن الكرنفالية اللغوية، حيث يصبح الضحك والهجاء والكلمة الدونية أدوات

لتفكيك هيبة السلطة المركزية. إن هذا الخطاب الهامشي لا يصدر فقط عن موقع اجتماعي مغلوب، بل عن موقع رمزي متوتر، يمارس فيه المهمش فعل الكتابة، القول، أو السخرية بوصفها أفعال وجودية ضد الصمت المفروض في الأسواق الشعبية مثلاً، حيث تروى النكت السياسية أو التعليقات الساخرة على الأوضاع العامة، تمارس شكلاً من الخطاب الموازي، حيث يقال الشيء ونقيضه، ويتم تفكيك السلطة دون مواجهتها، بل بالسخرية منها، واللعب على رموزها ومزجها بسخرية يومية عميقة الدلالة. من منظور **بيير بورديو**، فإن ما ينتج في الهامش لا يخلو من رأس مال رمزي، بل ينشئ حقلاً رمزياً خاصاً به، تحكمه قوانين داخلية ومعايير مختلفة عن الحقل الأكاديمي أو الإعلامي الرسمي. وبالتالي فإن هذه "الكتابة الهامشية" سواء كانت على الجدران أو عبر الألحان أو ضمن المشهد البصري للأحياء، تشكل إعادة توزيع للشرعية الرمزية، حيث تنتزع إمكانية المعنى من المؤسسات وتعاد إلى الشارع أو الزنقة إلى ذلك الحيز الذي يفترض أنه صامت.

تقدم **الإنثوميتودولوجيا**، كما طورها **هارولد غارفينكل**، أداة تحليلية حادة لفهم كيفية إنتاج الأفراد للمعنى داخل السياقات اليومية، لا من خلال البنى الكبرى بل من خلال الممارسات الدقيقة والتفاعلات المتكررة والكلام العابر (حمدي، 2022، صفحة 79) وعندما نعيد توظيف هذه المقاربة في السياقات الهامشية للأحياء الشعبية (كالحق المدروس) كفضاء للبطالة فإننا نكتشف أن المهمشين لا يعيشون خارج النظام بل يصنعون نظامهم الرمزي الخاص ويبتكرون طرقاً فريدة لتنظيم واقعهم، وفهم بعضهم البعض، والتفاوض مع سلطة لا تصغي إليهم. وبالتالي فإن الخطاب الهامشي بمختلف أشكاله التعبيرية لا يكتفي بتأدية دور الرفض بل يمارس إنتاج رمزي مكثف يعيد بناء العالم من موقع التهميش. إنه خطاب ينشأ في الهشاشة لكنه لا يختزل فيها بل يتجاوزها ليشكل ذاته ويتحول إلى مرآة سوداء تعكس الواقع كما لا يريد المركز رؤيته. كل ذلك يجعل من هذا الخطاب موقعاً تحليلياً في الدراسات السوسيو-أنثروبولوجية المعاصرة، باعتباره يكشف عن إمكانات الذات في إعادة كتابة شروط وجودها، لا عبر الاحتجاج، بل عبر اختراق المعنى من الهامش.

إذا كان الخطاب الهامشي كما بينا، يمثل أداة رمزية لإعادة تعريف الواقع من الأسفل، فإنه في عمقه ليس مجرد ممارسة لغوية أو فنية معزولة، بل يتجسد كبنية خطابية مضادة تقود رمزية السلطة وتعيد تموضع الذات داخل أنساق إنتاج المعنى. وبهذا المعنى فإن الخطاب الهامشي لا يتوقف عند حدود التعبير عن الألم أو الاحتجاج على التهميش، بل يمارس بوصفه تقنية وجود بتعبير فوكو حيث تستخدم اللغة، الجسد، الصورة والإيماء كأدوات لمقاومة أنظمة التصنيف، الضبط، والاعتراف، التي تفرضها المنظومة المهيمنة.

إن اللغة التي ينتجها الخطاب الهامشي لا يمكن قراءتها كأداة تنفيس أو تسلية فحسب، بل يجب التعامل معها كخطاب مضاد-سلطوي ينتج ذات جديدة من خلال تفكيك البنى الرمزية للمركز هنا نستدعي ما ذهب إليه **بيير بورديو** في تحليله للمجال الرمزي، حينما أشار إلى أن الهيمنة ليست فقط سياسية أو اقتصادية، بل رمزية أيضا وأن الصراع على السلطة يبدأ من الصراع على المعاني فالخطاب الهامشي إذا ليس بريئا ولا عابرا، بل يخوض مواجهة معرفية ومجالية مع أنظمة المعنى التي تحاول احتكاره وتحديد أطره. ومن هذا المنظور تتشكل الهوية بوصفها ليست جوهرًا متماسكا وإنما عملية اجتماعية تخلق داخل الصراع الرمزي اليومي، حيث نرفض التصور السكوني للهوية، ونرى أنها تتشكل باستمرار عبر التفاعل مع الآخر ومع البنية الثقافية والسياسية. وهذا فإن الهوية الهامشية لا تتكون في فراغ، بل في مواجهة دائمة مع الإقصاء، من خلال الاحتفاء بالاختلاف، وتثبيت الوجود عبر الرموز المضادة. فعندما يكتب الشاب المهشم على الجدار "أنا هنا"، فهو لا يقدم خطابا بريئا، بل يطرح سؤال الهوية في وجه الغياب القسري، ويمارس بذلك نوعا من "الاستعادة الرمزية" للمكان، حيث يتحول الجدار إلى منبر غير رسمي، يوازي المنصات الإعلامية للمركز. وهذا الفعل – وإن بدا بسيطا – يجسد بالفعل الصغير الذي يمارس داخل الحيز الخاضع للسلطة، لكن بما يتجاوز قوانينها ويعيد إنتاجه من الداخل. كذلك عندما تختار المرأة في العي المهشم نمطا مغايرا في اللباس، أو تعبيراً مغايرا في حضورها الاجتماعي، فهي لا تمارس فقط اختلاف فردي بل تدخل في سجل رمزي مع المنظومة الذكورية والعرف الاجتماعي وحتى القوانين الثقافية المفروضة، مما يجعل من جسدها ذاته خطابا هامشيا يحمل معاني المقاومة والتحدي والانعتاق الرمزي.

إن الهوية الهامشية في هذا السياق لا تنشأ كهوية مكسورة أو ضحية كما تصورها بعض الأدبيات السطحية بل هي على العكس هوية ديناميكية، تفاوضية، وتعددية، تشتبك مع الهيمش لا فقط من موقع الضحية، بل من موقع المبدع القادر على إنتاج أنماط تعبير بديلة، وشفرات لغوية خاصة، وأطر تواصل غير معيارية. ولهذا فإن الخطاب الهامشي يكشف عن طبقات الهوية العميقة، تلك التي لا تتجلى في النمط الثقافي الرسمي، بل تظهر في الهشاشة، التهكم، الصمت، والضحك المشوب بالمرارة.

نختم طرحنا بأنه لا بد من القول أن الخطاب الهامشي في حي أولاد سمايل لا يعبر فقط عن واقع اجتماعي، بل ينتج هذا الواقع ويعيد تشكيل خرائط الهوية والانتماء. فالهامش لم يعد خارجا كما تصوره الأدبيات التقليدية، بل هو المختبر الرمزي الأكثر حيوية لفهم كيف تتكّن الهويات، وكيف يمارس الفعل الثقافي في شروط القطيعة والرفض وهنا تكمن أهميته ليس فقط فيما يقوله، بل فيما يخفيه، ويلمح إليه، باختصار فيما ينتجه من معاني وهاذا ما يعجز المركز عن فهمه أو تمثيله.

4. نتائج الدراسة:

لقد أتاح لنا تحليل الإشكالية المرتبطة بواقع المعيش اليومي داخل حي أولاد سمايل، أن هذا الأخير الذي نشأ على هامش مدينة التلازمة بسبب الزواج الريفي والتوسع العشوائي على الأراضي الزراعية، نتج عنه فضاء اجتماعيا وثقافيا مطبوعا ببعض السمات الهامشية والتفاوتات الاجتماعية والظروف الصعبة التي دفعت سكانه إلى خلق مهن بسيطة وتكوين علاقات مجتمعية تضامنية لمواجهة هذه الصعوبات ومحاولتهم للاندماج في الحياة الحضرية.

ظهور بعض التجاوزات من قبل السكان والتي تمثلت في إقامة مساكن هشة على حساب الأراضي المخصصة لإنشاء بعض المنشآت القاعدية، كاستجابة لحاجات معيشية أساسية، فقد تبين وجود قصور واضح في التحكم في الوضع من طرف الجهات المعنية بالتعمير على مستوى المدينة، بالإضافة إلى غياب هيئات الرقابة الحضرية التي كان من الممكن أن تتدخل بشكل استباقي لضمان احترام قوانين التعمير وسياسات الدولة وحماية ممتلكاتها.

تُعدّ مركزية السلطة واتخاذ القرار من أبرز الإكراهات التي تثقل كاهل التنمية المحلية. فلا يمكن تصور تحقيق رفاهية السكان القاطنين في الهوامش الحضرية ضمن مجالات ترابية تعاني من نقص في التجهيزات الأساسية والبنى التحتية، وتفتقر إلى عناصر الجاذبية. ومن ثمّ، يصبح من الضروري أن تتدخل الجهات المعنية ضمن رؤية مندمجة تأخذ بعين الاعتبار هذه الإشكاليات البنيوية. أما فيما يتعلق بإنشاء مصانع إعادة التدوير، فرغم ما توفره من فرص تشغيل على المستوى المحلي، إلا أن ما تُحدثه من تلوث بيئي، وما تُسببه من أمراض صحية للسكان، يجعل من الضروري إعادة النظر في تواجدها، بل والعمل على تفكيكها حفاظاً على البيئة وصحة سكان هذه المناطق الهامشية.

فيما يخص فئة الشباب، عملت الجمعيات الرياضية كوسيط يُمكن من خلاله ترسيخ بعض القيم لديهم. وقد لاحظنا أن الجمعية الرياضية الوحيدة التي تنشط على مستوى المنطقة، والتي من المفترض أن تدافع عن مصالح نادي كرة القدم المحلي الذي ينشط في بطولة القسم الثاني، لا تكفي وحدها للدفاع عن مصالح شباب المنطقة. فمن الضروري أن تظهر جمعيات أخرى تهدف إلى الدفاع عن حقوق الشباب وتنظيم الأنشطة الترفيهية والرياضية في حي أولاد إسماعيل.

بعد المعاشية الميدانية لواقع حضري يعكس جانباً من التجربة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للهامش الحضري (حي أولاد سمايل). توصلنا إلى أن دور الفاعلين المحليين من أجل العمل بشكل تشاركي ومنسجم، على اجتثاث مختلف الاختلالات الحضرية التي تحول دون إعادة تصوّر فضاءات العيش اليومي بطريقة أكثر عدالة وإنسانية، قد غيب مما يستوجب الكشف عن المصالح

الشخصية ومحاربتها، حينما تكون على حساب المصالح الجماعية التي من شأنها أن تعود بالنفع على سكان هذه المنطقة الهامشية.

ازدواجية الواقع المعيشي: يظهر المعيش اليومي لسكان هامش مدينة التلازمة كواقع مزدوج؛ يجمع بين ظروف من الفقر، الإقصاء ونقص الخدمات، وبين أشكال من التكيف والمقاومة تُعبر عن قدرة السكان على إعادة تشكيل حياتهم اليومية رغم التحديات. الحرمان من البنى التحتية والخدمات الأساسية، حيث يواجه السكان نقصاً في التغطية الصحية، التعليمية، والنقل العمومي، مما يُرسي بظلاله على جودة الحياة ويعمّق الإحساس بالتمييز.

يتضح من خلال دراسة الخطاب الهامشي في حي أولاد سمائل أن الهامش ليس مجرد موقع جغرافي أو اجتماعي، بل هو فضاء تعبير غني يعكس صراعات الهوية وتحولاتها، حيث يوظف سكان هذا الحي أدواتهم اللغوية والثقافية لتشكيل خطاب مغاير يقاوم التمييز ويعيد تأكيد الذات الجمعية. فالهامش هنا لا يعني الانعزال، بل يشكل مركز بديل يعبر عن الوجود، ويعيد إنتاج مفاهيم الانتماء والمقاومة بلغة تنبع من التجربة الحية. وبذلك يصبح الخطاب الهامشي في أولاد سمائل تجلياً لصوت الجماعة الساعية إلى إثبات ذاتها وهويتها وسط واقع يحاول تهميشها، مما يجعله خطاباً ذو بعد رمزي وثقافي عميق يتجاوز الصور النمطية السائدة.

خاتمة:

يمكننا القول أن الهامش الحضري ليس مجرد فضاء سكني لامتداد جغرافي يعكس التمييز الاجتماعي، بل هو فضاء رمزي وثقافي يعيد تشكيل المعاني في ظل التفاوتات الطبقية والمجالية. حيث ينتج سكان الهامش ثقافة خاصة بهم لمواجهة هذا التمييز أو التكيف معه من خلال أشكال التضامن والممارسات التي تعكس قدرتهم على التفاوض مع الواقع. وصياغة هويتهم التي تتجسد في بعض الأنماط من التعبير الرمزي الثقافي والاجتماعي.

وباختصار، يعيش سكان المناطق المهمشة واقعاً معقداً، لكن قدرتهم على الحفاظ على روابط اجتماعية قوية تُعدّ دليلاً على صمودهم ورغبتهم في بناء مستقبل أكثر عدلاً. فالحياة الاجتماعية في هذه المناطق تقوم غالباً على توازن بين الصمود، والتحديات، والأمل في مستقبل أفضل.

وبالتالي فإن تطوير رفاهية السكان الذين يعيشون على هوامش التجمعات الحضرية سيبقى صعب التحقيق في غياب إنشاء وتوفير التجهيزات والبُنى التحتية الأساسية الضرورية لتحفيز الجاذبية الاقتصادية والاجتماعية للمنطقة. ومن أجل منح هذه المنطقة مزيداً من الحرية في تسيير شؤونها، سيكون من الضروري أيضاً تطبيق نوع من اللامركزية في اتخاذ القرارات. وفي هذا الصدد تجد الدولة نفسها أمام مشكلات عجزت عن حلها حيث تطرح الأحياء الهامشية تحدياً من خلال صعوبة ادماجها في النسيج الحضري وضمن مخططات التهيئة العمرانية.

صورة رقم: "01" حالة التهيئة بشوارع حي أولاد سمايل

المصدر: التقاط الباحثة، في فيفري 2025



صورة رقم: "02" حجم قاعة العلاج متعددة الخدمات بحي أولاد سمايل



المصدر: من التقاط الباحثة، في أبريل 2025

صورة رقم: "03" تجميع الخردوات البلاستيكية أمام المساكن



المصدر: من التقاط الباحثة، في أبريل 2025

قائمة المصادر والمراجع:

- (2008). نتائج الإحصاء العام للسكان والسكن. ميله: مديرية التخطيط والتهيئة العمرانية.
- Urbaco. (2014). تقرير المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير لبلدية التلاغمة - المرحلة النهائية. باتنة: مكتب الدراسات.
- اسماعيل قيرة. (مارس، 2003). مجتمع التهميش... إلى أين؟ مهمشو المدينة العربية نموذجا. مجلة المستقبل العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. 25(290).
- (جانفي 2005). الحصيلة الأولية لإحصاء سنة 2023. بلدية التلاغمة: مكتب الإحصاء العام.
- بثينة حمدي. (30 جوان، 2022). الانثوميتودولوجيا كمقاربة منهجية لتحليل التفاعلات الافتراضية. الزهير للأبحاث والدراسات الاعلامية والاتصالية، 2(1)، 77-94.
- رشيد زرواتي. (2002). تدريبات على منهجية البحث العلمي في العلوم الاجتماعية (المجلد 01). الجزائر: دار هومة.
- سعيد ناصف. (2006). علم الاجتماع الحضري، المفاهيم والقضايا والمشكلات (المجلد 01). مصر: دار الكتب والوثائق القومية.

In English:

- (2008). Nataij alihsaa alaam lisekane wasakan. Mila: Modiriat altakhtit watahiaa alomrania.
- Urbaco. (2014). Takrir almokhatat altawjihi litahaia wataamir libaladiat Teleghma. almarhala anihaia. Batna: mahtab adirassat.
- Ismail Kira. (Mars 2003). Mojtamaa atahmich...ila aine? Mohamachou almadina alarabia namodajan. Majalat almostakbal alarabi. Markaz dirasat alwihda alarabia. bairout. 25(290).
- (Janvier 2005). Alhassila alawalia lihsaa sanet 2023. baladia Teleghma: Maktab alihsaa alaam.

Botaina hamdi. (2022). Alathnomitodologia kamokaraba litahlil atafaalat aliftiradia. Alzouhaire lilabhat wadirasat aliaalamia walitisia. almojalad 02(03).

Rachid zarwati. (2002). Tadribat ala manhajiat albahet alilmi fi aloloum alijtimaia.(01).aljazair. dar houma.

Said nasif. (2006). Ilem elijtima alhadari, almafahim w alkadaia w almochkilat. (01). Masar. Dar alkotob w alwataik alkawmia.